مناقشات

الدعوة الى التواضع الفعلي

بقلم : عبد القادر حافظ

* * *

قرأت بامعان بالغ نقد الابحاث المنشورة في العدد الحادي عشر بقلم الاستاذ عبد الجليل حسن (١) . والجدير بالملاحظة بادىء ذي بدء هو احساسي بارتياح تام عند اطلاعي على احدى العبارات التي استهل بها نقده والتي تقول : « وأحسب ان أفضل ما يتواصى به المثقفون العرب الآن ـ وأعتقد في كل وقت أيضا ـ هو الدعوة الى التواضع فيما يكتبون ويقولون ... الخ » . وقد أعجبتني هذه العبارة الممتازة (٢) لا لسبب الا لان كل من هب ودب من الذين امتلكوا القدرة على صياغة العبارات ، استغلوا هذه الامكانية الذاتية لاطلاق الاحكام الارتجالية كيفما شاءت أهواؤهم وذهبت تصوراتهم الشخصية . الامر الذي أدى بهم الى ولوج آفاق فكرية خطيرة يتردد الكثير من المثقفين بل والكتاب أيضا في ولوجها والخوض في غمارها .

الدعوة اذن مخلصة وصادرة عن وجدان واع بالمسؤولية الفكرية. الا انني والحق يقال فوجئت عندما واصلت الاطلاع على البقية الباقية من النقد . وأول ما لفت نظري بشكل خاص وبارز هو التناقض الصارخ ما بين دعوة التواضع الكريمة واسترسال الناقد في التهجم حسب المنهج الذاتي . وحظي كان من تهجمه كبيرا . وتساءلت هل هذا نقد موضوعي علمي أم هو اتجاه للسخرية والاستخفاف والغرور والاقحام بشكل لا ترضاه أدنى المناهج النقدية المحترمة فكيف بالخلق القويم ؟ وكيف ستكون حال الكتاب الجدد الذين سيتجرأون للكتابة في «الاداب» ليجدوا بعد حين نقدا لا علميا ولا موضوعيا ؟

ان الناقد المحترم اعترض على ما ذهبت اليه . وكان وجه اعتراضه ينصب على النقاط التالية :

١ ـ الكلام عن المرض والديالكتيك غريب ومضحك معا .

٢ ـ المرض يجعل الناس ينشغلون بالميتافيزيقيا .

٣ ـ لماذا زججت هنا بالادبيات الماركسية ؟

٤ ـ لماذا خصصت احشاء الانسان بحمل ديالكتيك الحياة والموت؟

٥ ـ الديالكتيك شيء يحمل .

٦ ـ محاولات التفلسف الساذجة جعلتني أتهم الجماهير بالتقاعس واللامبالاة والسكنة .

٧ ـ كان الافضل أن أتناول نقطة واحدة فقط من البحث كالثقافة الطبقية .

والحق ان المرض يا سيدي يجعل المريض يفكر بعالم الميتافيزيقيا الوهمي (الجنة ، النار .. الخ) اما اعتراضك : « والا كانت أكثر الشعوب مرضا أكثرها فلسفات عن الموت » ولم لا ؟ هاك الهند مثلا . انها شعب متخلف وفقير ويعج بالمرضى . افتح أي كتاب يبحث بالفلسفة الهندية تجد الموت يأخذ قدحه المعلى من الاهتمام والمعالجة. فالفلسفة الهندية هي فلسفة ميتافيزيقية . يعني انها تركز في الجوهر بحوثها الاساسية حول عالم الماورائيات ، خارج الواقع ، فوق الحركة التاريخية والاجتماعية . وما يكون غير الموت الصلة الوثقى ـ حسب مزاعم هذه الفلسفات المثالية ـ بعالم ما وراء الطبيعة ؟

ماذا يقصد الناقد بأن الديالكتيك ليس شيئا يحمل ؟

ان ذرة من الاوكسجين عندما تتحد بذرتي الهايدروجين ينتج عن ذلك تكوين جديد هو الماء . ألم تكن هذه الذرات الثلاث تحمل شرطها الديالكتيكي ؟ ألا تحمل في ذهنك التحليل الديالكتيكي للقوانين الموضوعية المتعلقة بالواقع المادي والايديولوجي والكوني ؟

اذن الديالكتيك يحمل كفكرة في الذهن ، وكواقع في وجود المادة وحركتها .

ان سخرية الناقد من قولي ان الانسان يحمل في أحشائه ديالكتيك الحياة والموت ، دلالة بالغة على اعتماده « النقد البشع » أو اللانقد (على غرار اللامعقول) أو النقد ضد النقد . والا فهل هذا اعتراض معقول أو مقبول من كلمة الاحشاء وايرادها بهذه الصيغة ووسط هذه الجملة ؟

ولو كان استعمالها تأتى بشكل نشاز لكان اعتراضه وجيها وفي بابه . أما وان استعمالها كان ملائما فيبقى التفسير الاوحد هو النقد من حيث لا حاجة به .

ووجه اعتراضا آخر هو كون الانسان حيا ـ ميتا في آن . ويدل هذا الاعتراض على عدم استيعابه للفكر الماركسي ـ اللينيني . فليست الماركسية مقولات تحفظ أو قوانين تعلق وسط اطار قشيب . وانما هي قبل كل شيء منهج علمي في التحليل والمعالجة والعمل . واذا لم يفهم الاستاذ عبد الجليل حسن كلامي البسيط فكيف به يستطيع هضم الفكر الماركسي برمته ؟ ففي داخل الانسان خلايا تحيا وتتجدد وأخرى تموت وتندثر . أليس في داخله الحياة (الخلايا الجديدة) والموت (الخلايا الشائخة) ؟ بالاضافة الى ان قوة مناعة الجسم واستمرارها دلالة على الحياة بينما وجود الجراثيم متربصة يشير الى مكان الموت . ولنأخذ القلب البشري . انه محكوم عليه بالسكوت الابدي في أي لحظة . أليس هو عضوا حيا ـ ميتا في آن ؟ ولكن كون الانسان يتنفس ويأكل يشير الى غلبة عناصر الحياة على عناصر الموت . واذا ما ضمر جسمه فان العناصر الاخيرة تفوقت على الاولى . ووفاة الانسان لا يعني موته بالمفهوم الستاتيكي . فليس ثمة موت حقيقي كانتهاء نوع واعدام عضوي كامل . وانما يتفسخ الجسم لتذهب الغازات الى الجو والعضويات الى التربة . وهكذا لا يوجد شيء اسمه موت كما تفهمه جداتنا العجائز !!

والحركة الديالكتيكية تحكم سائر العلاقات الاجتماعية والفكرية والطبيعية . وكل شيء في الكون له علاقة بالديالكتيك . فالمرض هو حصيلة العلاقة الديالكتيكية بين جرثومة ضارة وجسم حي . ولذلك ليس البشر والحيوانات يتعرضون للمرض بل وأيضا النباتات هي الاخرى تتعرض لامراض خاصة بها .

أما اعتراضك حول زج أدبيات الفكر الماركسي هنا ، فاسمح لي أن أخبرك ان ذلك لا يعتبر من قبيل الزج أو الاقحام . كما ان أدبيات الفكر الماركسي تتصدى لسائر المضامين المتعلقة بالقوانين الموضوعية للحركة الاجتماعية والفكر البشري والكون الطبيعي (ظاهرة اجتماعية ـ الجريمة مثلا ـ أو فكر وفلسفة وأدب وفن أو الظواهر الكونية) وأخيرا وليس آخرا : انني كماركسي لا بد وأن أستخدم منهجي الفلسفي في التحليل والمعالجة .

وقد استنكر السيد عبد الجليل حسن اتهامي للجماهير العربية بالتقاعس . ولكن ألست محقا في كلامي ؟ ما الذي بدا من جماهيرنا

---

(١) ان الكلام الشفوي يبقى فحسب شيئا مجردا . ومتى أخذ دوره الى القرطاس ، يتحول من كلام الى عمل . أي يصبح صاحبه مسؤولا عما جاء فيه . بالاضافة الى ان الكلام العيني (الكتابة) له فاعلية سلبية أو ايجابية حسب محتواه الاجتماعي والتاريخي . فالتواضع يبقى مجرد دعوة أخلاقية طيبة ان لم يتحول الى فعل من خلال الممارسة العينية المباشرة .

(٢) ينجسد التواضع الفعلي بشخصية البرت آنشتاين ، صاحب النظرية النسبية الجديدة (تمييزا عن نسبية نيوتن) اذ أجاب ما معناه عندما سئل عن رأيه بنفسه كعالم وفيلسوف : « انني كالطفل الذي يلهو بحصاة على شاطىء البحر » ، ويقصد بذلك فيما أظن بحر العلم والمعرفة . فما رأي القابعين في الابراج العاجية ـ سلاطين الادب والفكر والنقد ـ في هذا القول ؟

الواسعة بعد نكبة حزيران المشؤومة ؟ المفروض بها أن تحول الارض حمما تحت أقدام الطغاة فتسحق الزعامات الفارغة المسؤولة عن مأساتنا الدامية . ولكن ادنى شيء من هذا القبيل لم يحدث ، وانما الذي حدث استخفاف منقطع النظير بها من قبل بعض الحكام المجرمين الذين لم يتورعوا في اشهار احتضانهم للرتل الخامس وكشف ارتباطاتهم الخيانية بالاجنبي المستعمر . أن الجماهير العربية ، وأقولها بصراحة ووضوح ، لم تكن في مستوى المعركة المصيرية لانها « متفاعسة » و « لا مبالية » . أما التظاهرات هنا وهناك فهي أساليب « كرتونية » بالقياس الى الاسلوب الثوري . أسلوب دق أعناق المتواطئين مع موشي ديان والصهيونية العالمية والاستعمار العالمي والامبريالية الاميركية .

وكلمة أخيرة أقولها حول مقالتي « تنمية الفعالية الجماهيرية » اذ انها لم تكن كلها ذات أفكار جديدة وانما ثمة أفكار جديدة فيها والبقية الباقية تبقى مجرد أفكار متداولة ومتواترة . وانما اتيانها كان من باب ضرورة التماسك الفكري بين سائر مستويات المقالة .

ونادرة ، تلك المقالة التي تأتي بالجديد الجيد من الفها الى يائها .

واود أن أهمس بأذن السيد الناقد بأنني لست راضيا البتة على مقالتي . وقد ظل السؤال الملح يهاجمني اناء الليل وأطراف النهار :

ـ ألم أكن متسرعا في نشرها ؟

وكانت تتنازعني (لا) و (نعم)

لا : لان الكثير من مقالات « الآداب » في مستواها ، ان لم يكن بعضها أدنى منها .

ونعم : لان المفروض ، حسب منهجي في التثقيف الذاتي ومساهمتي في تنوير الآخرين ، أن أنشر الاجود والافضل . الا انه يرد على ذلك بأن أجود اليوم سيتجاوزه أجود الغد . وهكذا تستمر عملية الابداع الدائم والتطور الفكري .

بغداد — عبد القادر حافظ

بمناسبة الاعياد

تقدم

مكتبة انطوان

فرع الامير بشير

أغنى مجموعة من الكتب

العربية والاجنبية

دار الاندلس

للطبع والنشر والتوزيع

تقدم خالص تهانيها بالعام الجديد راجية أن يعيده الله على امتنا العربية بالمجد والنصر

وتقدم آخر ما صدر عنها

الطب الشعبي

تأليف الدكتور امين رويحة

طبعة جديدة عليها زيادات هامة

وصفات من الطب الشعبي بطريقة علمية تشمل الطب الحديث والقديم .

•

التداوي بالايحاء الروحي

تأليف الدكتور امين رويحة

احدث ما أقره الطب الحديث للتداوي

بالايحاء النفسي ـ التنويم المغناطيسي ـ اليوغا مع ملحق عن مرض الربو اسبابه وعلاجه .